

find out the ingredients or Algerian culture in the critical discourse in the writings of Rekibi and look how the committed Algerian artist and intellectual has contributed to its preservation.

تمهيد:

المقاومة هي الرفض والتصدي للدخيل، وهي مواجهة الظلم والاحتلال، المقاومة هي النضال والثورة على كل مخططات الأخر للسيطرة علينا، وجميع الوسائل المتاحة، عسكرياً وسياسياً وثقافياً وفكرياً وأدبياً، و من الثقافة ما هو تمرد ورفض، وهي شكل آخر للمقاومة والثورة على الجهل والجمود والتخلف والظلم والقهر، من أجل تحرير العقول واسترجاع مقومات الشخصية لاستكمال الحرية والكرامة، والثقافة الجزائرية خير مثال على هذه المقاومة المستمرة عبر الأجيال، والبحث فيها عن سمات المقاومة ثري جداً خاصة حين تمتزج بالفكر والدين والمعتقدات والأدب، إذ كيف استطاعت الثقافة الجزائري في كل مظهراتها أن تكون وسيلة مقاومة ونضال؟، وإلى حدٍ بلغ تأثير الثقافة المحلية في الأوضاع السياسية والاجتماعية؟ وكيف استطاع عبد الله ركيبي من خلال دراساته أن يكشف عن هذه الثقافة وأصولها وتوجهاتها المتعددة ووسائلها؟.

1- المقاومة:

منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض، وهو يقاوم الطبيعة والوحوش الضواري، كما يقاوم بني جنسه حفاظاً على نفسه وصغاره وصيده وأرضه، في محاولات مستمرة لإثبات وجوده أمام طغيان الطبيعة والأخر، متكيفاً مع هذه الظروف والعوامل، و«ظاهرة المقاومة، ظاهرة عامة إن في الطبيعة أو عند الإنسان، ففي الطبيعة تشاهد يومياً أمثلة متكررة على مقاومة المواد بأنواعها، والحجر الضخم نفسه يقاومني حين أريد زحزحته، وكذلك الباب، كما يقاوم الوليد أحياناً ما تريد الأم فعله معه»<sup>1</sup>، فتعددت

## المقاومة الثقافية من منظور الناقد عبد الله ركيبي

أ. ناجية صالح  
أ. هيمة عبد الحميد  
جامعة قاصدي مرباح ورقلة  
البريد الإلكتروني:  
salhinadji@yahoo.fr

الملخص:

المقاومة فعل إرادي وإع، وحق من حقوق الشعوب يتخذ الأشكال والوسائل المتعددة، والمقاومة الثقافية من أبرزها وأهمها، حيث لا تنتهي عند جلاء الاستعمار فحسب، ولا ترتبط به بالضرورة، وإنما هي مستمرة لتحقيق الاستقلال الكامل والحفاظ عليه مكملاً، وما عانتها الثقافة الجزائرية من محاولات التزييف والمغالطة أيام الاستعمار الفرنسي، قد استدعى التجند لاسترجاع ما ضاع منها، وترميم ما شوه فيها، وهذا ما سعى إليه كثير من مثقفينا ونقادنا، فكان عبد الله ركيبي واحد من الذين سعوا بكل جهدهم إلى البحث في نتاجنا الثقافي والتأكيد على أصالة ثقافتنا وخصوصيتها. وفي هذا المقال سنبحث في الخطاب النقدي عند عبد الله ركيبي عن مقومات هذه الثقافة، وكيف أسهم المثقف والفنان الجزائري المقاوم في التمسك بها والحفاظ عليها؟.

كلمات مفتاحية:

المقاومة؛ الثقافية؛ عبد الله ركيبي؛ الخطاب؛ النقدي.

### ABSTRACT :

Resistance is voluntary and conscious act. In fact, it is one of the people's unalienable rights that takes different forms and means. Cultural resistance is one its main forms, it does not stop with the end of colonization. Indeed, it continuous until full independence is achieved. Algerian culture had been under constant falsification and distortion by the French colonizer ,which pushed Algerian intellectuals and critics to mobilize themselves to regain what has been lost and restore what has been distorted. Abdullah Rekibi was one of those Algerian critics who did their best to dig into our cultural heritage, shedding light on its originality and specificity. Hence, this research is an attempt to

ويقضى مضجعه، وهما هو جلامش البطل الأسطوري يقاوم قدر الآلهة والطبيعة المتمثلة في الفناء، يقاوم الموت بالبحث عن الخلود، فجلجامش الذي قاومه شعبه هو الآخر، حاول «البحث عن سر الخلود، بعد أن أفزعه موت صديقه "انكيديو" وأدرك أنه سينتهي إلى مثل نهايته، غير أن محاولات هذا البطل انتهت بالخيبة والانكسار ومن ثمة التسليم بعدم جدوى بحثه»<sup>4</sup>، وفي صورة أخرى نقلت لنا الأسطورة شكلاً آخرًا للمقاومة، فلم تكن مقاومة الطبيعة وحدها هي التي تشغل فكر الإنسان، بل تعدى هذا الفكر المقاوم حدودها ليذهب إلى مقاومة إرادة آلهته، مثل ما روت الأساطير عن "بروميثيوس" الذي خرج عن إرادة آلهته بوقوفه في صف الإنسان حين نقل له نعمة النار، فما كان من جوبيتير إلا الرفض، ليفعلها بروميثيوس وحده فنزلت عليه لعنة الآلهة جوبيتير عقاباً شديداً، كالذي نزل كذلك على "سيزيف" البطل المقاوم حين «حكمت الآلهة على سيزيف بأن يرفع صخرة بلا انقطاع إلى قمة الجبل حيث تسقط الصخرة بسبب ثقلها ثانياً»<sup>5</sup>، سيزيف الذي وضع الموت في الأغلال وفضل بركة الماء على الرعد السماوي، فكان هذا العقاب في العالم السفلي على ما بدر منه من رفض ومقاومة فكانت هذه الأسطورة الملهمة العظيم لكثير من الفلاسفة والأدباء، و«لقد اتخذ ألبير كامو من هذه الأسطورة العظيمة محوراً فكرياً لنظريته في "عبث الوجود الإنساني" (...). في أنها تجسيد عميق للصراع الأبدي بين الإنسان والظروف المحيطة به»<sup>6</sup>، فرمزية هذه الأسطورة تتعدى حدود العمل الأدبي إلى الدعوة خصوصية الثقافة والتحرير على الرفض والمقاومة.

وبهذا فإن الإنسان الراضى المقاوم كان دائم السعي وراء الحرية بكل الوسائل والأشكال على تعددها وتنوعها عبر الأزمان. فكل مرحلة كانت تتطلب وسيلة ما وطريقة معينة تتطور بتطور

أنواع المقاومة واختلفت أشكالها باختلاف الظروف والمؤثرات المضادة، ويتطور الوسائل المتاحة التي تطورت بتطور الإنسان وفكره.

لذا فإن المقاومة في إطارها الطبيعي لا تتعدى حدود الأجسام والمواد وتأثرها بمقاومة الجاذبية والرياح والحرارة، أما في علاقتها بالإنسان والوجود فهي فعل إرادي يسعى إلى إثبات الوجود والحفاظ عليه، وبما أن جسم الإنسان يقاوم كل الظروف والمؤثرات الداخلية والخارجية كمقاومة المناعة والجلد وبقية الأعضاء لما يحيط به من دخلاء غير مرغوبين، فإن العقل البشري باعتباره عضواً أساسياً لدى الإنسان، فإنه دون شك يمتلك صفة المقاومة كذلك، ولأن عقل الإنسان الواعي يمتلك القدرة على ربط العلاقات ودمج المعطيات والابتكار والتطوير، فإنه قادر على فهم وتطوير أشكال هذه المقاومة وتنوع أساليبها وابتكار وسائلها الجديدة، لتغدو «المقاومة شكل لظاهرة من الظواهر الحيوية الذهنية الأساسية»<sup>2</sup>، تجعل من النشاط الذهني يقوم بمهمة مقاومة بابتكار سبل البقاء والحفاظ على الحياة.

لذا « فإننا حين نرتفع من أعضاء الجسم الإنساني إلى وظائف الذهن الإنساني سنجد أن أول مظاهر النشاط الذهني هي ما نسميه "التوجه الذهني الذاتي"، وهنا أيضاً نجد أساساً لرفض ما قد يأتي من الخارج ليفرض إن على الجسم أو على الذهن»<sup>3</sup>، فالتوجه الذهني الذاتي هو الإرادة الواعية لما حولها من دوافع وأسباب، وواعية بما يجب عليها لتواجه كل دخيل.

ومنذ البدايات الأولى لحضارة الإنسان ككائن مفكر، بدأت الأساطير والخرافات تحاك حول حياة البشر وعلاقتهم بالطبيعة والآلهة، وحرورهم مع السماء والأرض في صراع أزلي بدأ بسخط الإنسان وتمرده على آلهته الخالدة على حسب اعتقاد الحضارات القديمة، فما كان حكمها عليه بالفناء يرضيه، فقد كان الموت أكثر شيء يؤرقه

والوسائل المعتمدة في تشكيل وعي وفكر رافض ومقاوم، لأن «الحياة مقاومة مستمرة، والأدب نسغ تلك المقاومة الذي يسري في شعاب القلب والروح ليبعث الحيوية ويجدد الحياة ويحرص على فعل المقاومة. وحين يتعري القلب، وتتشقق جذوع الروح، وتقف هيكلًا عظيمًا باهتًا مرمدًا يقاوم الهلاك والتهاك والتهافت، يسري سحر الكلمة صادقة منقذة لبيدع الحياة وبيبعثها، ولينعش هيكل الروح فيخضر ويحصل ويزدهر ويقبل على ما في الكأس من بقية، حتى وهو يغالب ترسبات الحنظل فيها»<sup>11</sup>، ويبقى الأدب والفن والثقافة من مصاحبات المقاومة عبر كل العصور وفي كل الحضارات.

## 2- الثقافة:

رغم المفاهيم العديدة التي قدمها الفلاسفة وعلماء الأنثروبولوجيا لكلمة ثقافة، و التي بحث فيها أهل الفن والأدب والاجتماعيات، إلا أنها لا تزال في حاجة إلى ضبط دقيق، ولا يمكن أن يتحقق ذلك من خلال هذه المفاهيم المختلفة، لأن كلمة ثقافة تحيلنا إلى ذلك الموروث الإنساني المتعدد والمتجدد عبر التاريخ، فالإنسان الأول بسلوكياته البدائية قد خلق ثقافته التي تحدد أسلوب حياته، ومنذ ذلك الوقت والثقافة الإنسانية تشهد تلك النقلات التاريخية المختلفة اختلاف الأزمان والشعوب، «وإذا كانت كلمة ثقافة تكشف عن مسارنقلات تاريخية غاية في الأهمية، فإنها أيضا ترمز إلى عدد من المسائل الفلسفية الرئيسية، إذ تحتل بؤرة هذا المصطلح المفرد على نحو مهم، قضايا الجبر والاختيار، الفعالية واطراد البقاء، التغيير والهوية، المعطى والمخلوق، وإذا كانت الثقافة تعني نزوعاً نشطاً إلى النمو الطبيعي فإنها تشي حينئذ بعلاقة جدلية بين الاصطناعي والطبيعي، وما نفعله للعالم وما يفعله العالم بنا»<sup>12</sup> إذ لم يعد مفهوم الثقافة يقتصر على تلك الموجودات والأعمال الزراعية والحياة الاجتماعية

الثقافة الإنسانية، وهنا قد صورت لنا الأسطورة عدة أشكال وأنواع من المقاومة كما صورها الأدب عبر العصور، و«الأکید أن كل فكر مقاومة لابد له من التمتع بجرع من ينبوع الجرأة والتمرد والانقلاب، ولا بد له أن يخلق توتراً قائماً بين المضطهد والسلطة بأشكالها المعاصرة (...)» فللمقاومة قانون حراك هدفه الأساسي الحرية الإنسانية، وبالتالي تكون المقاومة قابلة لشتى التحليلات<sup>7</sup>، ومع هذا التوتريخلق فعل المقاومة الذي يززع المهادنة والخنوع، ويبعث في النفوس قانوناً جديداً يعيد تنظيم العلاقة بحراك مستمر يقوده ذلك المقاوم الذي يعي جيداً أفكار المهيمن، ومدى قدرته على التعاطي مع هذه الأفكار والمفاهيم الفلسفية التي تقتضيها المقاومة لأن « المقاومة تتركب من شبكة مفهومية ترافقها تقتضي كل منها الأخرى، لكن الأهم هنا كيفية التعاطي مع هذا المفهوم وإشكالاته وبيان مقومات هذه المسألة الفلسفية التي تقتضي دقة وصرامة نظراً إلى ما تحمله في طياتها من تشابك وتعقيد»<sup>8</sup>، فليست المقاومة فعل لا إرادي وحده، بل هي فلسفة وثقافة ترافق الفعل وتوجهه وتؤطره لتضعه في مساره الصحيح ليؤدي مهمته في جميع المستويات.

ومن خلال هذه المفاهيم الأولية فإن « الإطار العام للمقاومة إنما هو حفظ الحياة وحفظ الذات»<sup>9</sup>، وهذا السعي الدؤوب للحفاظ على الوجود إنما هو نشاط يتميز به الإنسان بقصدية ووعيه، لذا ف« إن المقاومة هي نشاط قصدي للحفاظ على أساسيات الوجود الإنساني، ولما كان الكائن الإنساني هو الكائن الحي الفاعل قبل أية صفة أخرى له، فإن المقاومة الجوهرية تصبح " فعلاً" على أعلى درجة»<sup>10</sup>، لأن فعل المقاومة يتخذ أشكاله المتعددة وأساليبه المتنوعة، كالمقاومة المادية، والسياسية والثقافية، والأدب والثقافة من أهم مظاهرها، أو بالأحرى من أهم الطرق

حوله من ظروف وعوامل تستدعي إبداع وسائل خاصة لمقاومتها والتصدي لكل مؤثراتها والتكيف معها، «وبتعبير آخر، فالثقافة تستطيع أن تمنحنا اللحظات الممتعة، إذ توحى إلينا أن ننشد أحياناً مجتمعين، وأن نرقص مجتمعين، ونضحك مجتمعين؛ والأداء الحسن لذلك كله ظاهرة مشجعة وجمالية ينبغي عدم الاستخفاف بها، ولكن دورها الأساسي أن تعلمنا العيش المشترك والعمل المشترك، وخاصة الكفاح المشترك»<sup>15</sup>، وهنا يكمن الدور الفعال الذي تلعبه ثقافات الشعوب من منطلق أنها فكر وسلوك اجتماعي، فهي التي توجه المجتمع نحو اتخاذ موقعه بين المجتمعات الأخرى، وهي التي تدفع به إلى اختيار مساره وتحديد مستقبله، لأن الثقافة كما قال مالك بن نبي هي التي تعلمنا العيش المشترك، فهذه الشراكة هي المجتمع الذي يتقاسم كل أفرادها نتائج ثقافته.

لذا فإن الثقافة وسيلة مهمة وضرورية في بقاء الشعوب واستمرار حضارتها، مهمة بفاعليتها التي بإمكانها أن تحقق ما لم تستطع تحقيقه كل الوسائل المادية المنعزلة عن الثقافة، وضرورية لأنها هي التي تصنع تميز هذا المجتمع عن ذاك، ولهذا فإن التاريخ البشري يؤكد على أن أي حركة كفاح ومقاومة يجب أن تنطلق من ثقافة اجتماعية تُجمع على فكرة ضرورة المقاومة، ولتحقيق التحرر المادي يجب أولاً تحقيق فكرة المقاومة في الأذهان، وبعد التحرر المادي يجب مواصلة المقاومة الثقافية لتحقيق الخصوصية والبقاء.

### 3- المقاومة الثقافية:

ولما تعددت أشكال المقاومة في الفكر الإنساني، باعتبار تنوع الثقافات وتطورها، فإن المقاومة ترتدي زي الثقافة أيضاً، وهكذا كانت المقاومة الثقافية صوتاً آخر من أصوات الشعوب، « والمقاومة الثقافية ليست بإعلان

في شكلها وفكرتها الجماعية، بل صارت فلسفة الوجود وكيفيته، وطريقة الإنسان في تحديد علاقته بعالمه، ومدركاته وتصوراتهِ ووسائل تعبيره السياسية والاجتماعية والدينية، من منطلق ارتباط الإنسان بالدين دوماً، فالثقافة الإنسانية كثيراً ما ارتبطت بالمعتقد الديني متأثرة به بشكل كبير، « والثقافة- بما تتضمنه من فكرة دينية انتظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن آدم- لا يسوغ أن تعد علماً يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به وإطار يتحرك داخله، فهو يغذي جنين الحضارة في أحشائه، أنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وهي الوسط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغايات العليا التي رسمها المجتمع لنفسه»<sup>13</sup>، وفي هذا نجد الفيلسوف "مالك بن نبي" يرى بأن الثقافة رغم ارتباطها بالدين إلا أنها تشكل المجال الذي تدور فيه متطلبات الحياة الإنسانية في شكلها الاجتماعي، وهي ذلك الكم الهائل من إبداعات الإنسان وممارساته المادية والمعنوية، «فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعقريات متقاربة وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة»<sup>14</sup> فهذا المفهوم عند مالك بن نبي يحدد مفهوم الثقافة في ارتباطها بالتاريخ، أي إنتاج الرصيد الثقافي الإنساني وتراكمه عبر التاريخ معنى الثقافة في التاريخ، وليست الثقافة عند مالك بن نبي عمل فطري لا إرادي، أو أسلوب حياة غير واع، بل هي سلوك وممارسة تتسم بالوعي التام والقصدية الفعلية، ليصفها بالكتلة المركبة من الممارسات المتجانسة والمتقاربة والمتكاملة والمتجانسة.

كما أن تلك السلوكيات تجاه العالم وإن كانت تبدو ترفيمية ممتعة، أو جمالية تراثية، هي في الحقيقة سلوك إنساني اجتماعي خبير بالطبيعة المشتركة، أي أنها نتاج وسط اجتماعي واع بما

للمقاومة، وابتكار المعيش اليومي في ارتقائه الآلي وارتحاله الفني»<sup>19</sup>، في مسيرة بحث وسعي لقلب الموازين وترجيح الكفة.

وهذا البحث عن مكملات التحرر قد شغل الفكر في مشارق الأرض ومغاربها، رفضاً لثقافة المستعمر لأن «طبيعة الثقافة الاستعمارية تكمن أساساً في سعيها إلى جعل الثقافة المحلية في تبعية دائمة لها، ففي ذلك قوتها واستمراريتها وتأييد سيطرتها، وفي ذلك - بالعكس- ضعف الثقافة المحلية وانتكاسها وتبعيتها»<sup>20</sup>، وفي رحلة البحث التي تحدث عنها "فرانز فانون" في مقالته التي نشرها سنة 1959 في مجلة "الثقافة والأمة" حين أكد على ضرورة مرافقة المقاومة الثقافية للمقاومة المسلحة، «وفي تحليله يعطي أهمية كبيرة للمقاومة الثقافية التي يجب أن ترافق المقاومة العسكرية وتسير بجانبها ومن دونها لن تكتمل عملية التحرر، وقد تلقت الشعوب المستعمرة ومثقفوها دعوة فانون باهتمام كبير لأنها كانت -بالنسبة إليهم- نبوءة في وقت كان الضياع هو ما يميز كل أولئك أمام الآلة الاستعمارية التي عملت على التشكيك في قدرات تلك الشعوب وتراثها الثقافية وجعلها تابعة لأوروبا سياسياً وثقافياً من خلال مصادرة هويتها وطمس معالمها الثقافية»<sup>21</sup>، ولم يكن "فانون" الصوت الوحيد الذي نادى من تحت هذه الآلة القمعية الفرنسية العنصرية، بل تعددت الأصوات التي تعالت هنا وهناك «مع الصحوة النقدية المعاصرة والمسار الفلسفي المتجدد الذي خاض غمار البحث فيه عدد غير قليل من المنتميين إلى الأوساط الامبريالية، وصعدت أصوات الذين رفضوا السير وراء تيار قمعي عبّر القارات وفتك بثقافات وتواريخ عديدة، هؤلاء الذين شيدوا صرح المقاومة الثقافية أمثال إدوارد سعيد وهومي بابا، وبيل أشكروفت، ووليامز رايمون، وول شوبنكا وأشنوا أشيبي... وغيرهم من الذين سخروا طاقاتهم

الحرب وحمل السلاح ضد جبهة ما..المقاومة هي أن أسير عكس التيار السائد..أن أقول لا حين تسود كلمة نعم، يكفيك أن ترفض الخضوع للعادات والتقاليد السائدة حتى تصبح مقاوماً! يكفيك أن تحمل قلمك وتكتب لمحاربة السلطة، أي سلطة كانت»<sup>16</sup>، وللحديث عن المقاومة الثقافية يتبادر إلى أذهاننا سؤال مصدر هذه الثقافة، ورواجها في فلسفة الفكر العربي، وللإجابة عن هذا السؤال كان علينا أن نبحث في الثقافة العربية والغربية على السواء، قديماً وحديثاً، وهنا ودون الإيغال في تاريخ الشعوب والحضارات ولكن بشيء من الإيجاز وفي بعض المحطات، «إن الحديث عن ثقافة المقاومة في الخطاب الفلسفي العربي يندرج في إطار الحديث عن فلسفة الفعل باعتبار أن هذه الأخيرة تعطي الأولوية للفعل على النظر العقلي المجرد، فهي ترى أن الحقيقة تكتسب بالعمل لا بالتأمل المجرد»<sup>17</sup>، وهذا ما وجدناه عند الناقد عبد الله ركيبي الذي يركز على دور الثقافة القومية التي من شأنها أن تعيد للشعب مقومات شخصيته وهويته، «ومن هنا يتفق ركيبي مع رأي "برونسلاو مالينوسكي" في أن الثقافة مجموعة من القيم الروحية والإنسانية، لذا، فمصير الإنسان رهن دائماً بثقافته فهي تحتل مرتبة رئيسة في تكوين الفرد وبناء شخصيته، ولعل هذا ما سيدفعنا للقول: إن الثقافة لدى ناقدنا هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة»<sup>18</sup>، فالممارسة تشكيل لتلك المعارف، وتمثيلاً حقيقياً لها.

وما دامت المقاومة في شكلها الثقافي هي السلوك المباشر وردة الفعل قبل البحث عن نظريتها، فإنها فعل إنساني على كل المستويات، الظاهرة منها والخفية، إنها عملية الإبداع الثقافي الفعلي لأشكال الرفض، «إن المقاومة هي ثقافة المرفوض ضد المفروض، الثقافة هي مقاومة ضد الهيمنة، لكنها مقاومة ذكية، دهليزية تحتية، وأيضاً نحتية، بإبداع المفاهيم المصاحبة

عصر يسعى إلى تقارب إلى تعايش سلمي تحافظ فيه الشعوب على حريتها وعلى أصالتها من جهة ولا تذوب أيضا في بوتقة الآخرين من جهة أخرى»<sup>25</sup>، ورغم الارتباط العام بالحضارة العالمية إلا أن الخصوصية تبقى هدف الحركة القومية، ومسعى المدافعين عن الهوية الوطنية.

فمهما كان ارتباطنا بغيرنا من الشعوب في حضارة إنسانية واحدة، لا بد علينا أن نسخر ثقافتنا في مقاومة ثقافة الآخر ومقاومة الذوبان فيه، وهذا ما سعى إليه الاستعمار الفرنسي في الجزائر محاولاً نكران ثقافتنا وتاريخنا الثقافي الأصيل، وكما يرى ركيبي فإن الشعب الجزائري لم يفقد ثقافته وحضارته، بل بالعكس فقد جعل هذا الشعب من موروثه الثقافي شكلاً جديداً من أشكال المقاومة الثقافية، « والواقع أن التفكير الواعي لكل ما أسلفناه هو لب الثقافة وروحها وجوهرها.. هو الرصيد الحضاري والثقافي الذي بقي في ضمير الشعب يتناقل من جيل إلى جيل.. هو دليل آخر على أن شعبنا كان له حظ من الثقافة مكنه من أن يحافظ على كيانه وذاتيته وشخصيته العربية الإسلامية»<sup>26</sup>، ورغم أن هذا السعي إلى الحفاظ على هذه الخصوصية الثقافية قد انحصر وانغلق على نفسه بسبب حصار آلة الاستعمار الفكرية والثقافية ومحاولاته المستمرة والرامية إلى القتل الرمزي لهذه الثقافة والهوية.

إلا أن جهود الشعب وجهود مفكره لم تكل ولم تمل في البحث عن أشكال أخرى لمقاومة ثقافة الاستعمار « فكان الانقلاب على تحفيظ القرآن والحفاظ على الحرف العربي رداً على الغزو الثقافي.. وما النقوش والكتابات العربية التي تزخر بها جدران المساجد ودور الآثار التاريخية والتي يعتبرها الأجانب مجرد أشكال زخرفية إلا دليلاً ساطعاً على محاولة الحفاظ على الحرف العربي والثقافة العربية المحفورة في أذهان وقلوب الشعب»<sup>27</sup>، كما أن مجالس السمر في البوادي

المعرفية للرد بالكتابة على كل أصناف القمع سواء كان ثقافياً رمزياً أم مادياً قهرياً»<sup>22</sup>، وحملوا لواء التصدي والصمود بكل ما أوتوا من إمكانيات فكرية ونتاج أدبي وثقافي في مواجهة القمع والطغيان، ورفض فكرة مركزية الثقافة الاستعمارية السائدة باسم الحضارة والعلم.

وهذا ما كانت تعانیه الجزائر تحت آلة الاستعمار الهادمة للثقافات بحجة الدعوة إلى الحضارة الإنسانية. إذ استطاعت هذه الخدعة أن تجد طريقها في بعض الأوساط المثقفة آنذاك، « ولقد كنا في الجزائر ضحية هذا الفهم الخاطئ الذي حمل لواءه مستشرقون لهم أفكار وميول استعمارية وجاراهم في ذلك مثقفون من البلاد، وربما اندفع هؤلاء أو بعض من أولئك بنوايا حسنة، إلا أن النوايا الحسنة وحدها لا تكفي، بل عهدنا قد ولى ولم تعد تتبدل من وجوه المحتلين سوى الأغلفة»<sup>23</sup>، لتستمر سياسة المستعمر في طمس معالم الثقافة المحلية، وتعطيل النمو الثقافي وضرب الأدب باعتباره من مقومات الثقافة.

#### أ- الثقافة الأصيلة:

ولعل ركيبي أكثر حرصاً على تمسك ثقافتنا بأصولها وارتباطها بجذورها، وما خالفت هذا إلا صارت خطراً على فكر المجتمع و« إن أي ثقافة لا لون لها ولا عقل يحركها ويوجهها، تصبح خطراً على المجتمع وعلى وحدته»<sup>24</sup>، فدعوته إلى ثقافة أصيلة مشروط بارتباطها بالعقل الذي يوجهها، إضافة إلى انتماءها إلى وطنها وقوميتها وهذا هو فكر الأمة الذي يواجه ثقافات السيطرة والهيمنة، وفي حديثه عن علاقة الثقافة بالمجتمع يشدد ركيبي على الصلة الوثيقة بين الثقافة وحركة الشعوب التقدمية، فلا نجاح ولا تقدم دون ثقافة أصيلة مستمدة من تراثنا القومي وحضارتنا الأصيلة، « وهذا يعني أن ثقافتنا لن تكون معزولة عن واقع الحضارة الإنسانية الحالية خاصة ونحن نعيش في

والماضي فقط، بل كانت دعوته ترمي إلى التلاقح بين الجديد والتراث القديم « حتى تكتمل الثقافة في وحدة متماسكة لها جذور ضاربة في أعماق الماضي ولها جدة الحاضر التي تكسيها الاستمرار والتطور اللذين بدونهما لا تصبح ثقافة نامية متجددة»<sup>30</sup>، وهذا التجديد يوكله ركيبي إلى المثقف الذي أطلق عليه اسم المثقف الثوري، وحمله مسؤولية إعادة بعث ثقافة الأمة وتجديدها، بحيث تخدم الوعي بالماضي والتراث الأصيل وتصبو إلى ثقافة متجددة تسير التطورات والحالات المستجدة.

وليس حديث ركيبي عن أي مثقف، وإنما عن المثقف الثوري، « فالمثقف الثوري هو من يحس بمشاكل الشعب وهمومه وقضاياها..ينفعل بها ويعبر عنها بشكل أو آخر، أو يساهم بفكره وجهده في إيجاد حلول لها..حلول إيجابية بناءة»<sup>31</sup>، فالإحساس بمشاكل الشعب هو ارتباط به بإخلاص، لأن « المثقف الثوري هو ابن الجماهير الذي لا يتمرد ولا يتأمر عليها بل يستمد من تجاربه وخبراته ويستلهم منها آراءه وأفكاره ويحولها بعد ذلك إلى طاقات ايجابية فعالة تحرك هذه الجماهير وتجعلها قادرة على الرؤية الواضحة والوعي السليم وبقضاياها ومشاكلها، وفي نفس الوقت قادرة على حلّ هذه المشاكل وعلى تحقيق أحلامها ومطامحها»<sup>32</sup>، في بحثه في مقومات شخصية شعبه، والحفاظ على موروثه الثقافي وإحياء ثقافته.

وعلى الرغم من صعوبة الحفاظ على هذا الموروث الزاخر، إلا أن بذل الجهد واجب وضروري، وفي هذا يقول ركيبي: « إن إحياء التراث ليس عملية سهلة ولكنه جهد متواصل نزيه يقوم به من يؤمن بأهميته ودوره في الحياة الثقافية الفكرية والثقافية الروحية للفرد والمجتمع معاً ويقدر جهود الآخرين، أولئك الذين أنتجوه في ظروف خاصة»<sup>33</sup>، فشرط بذل الجهد النزيه أمر

وقصص البطولات وسير الأبطال، من أمثال ذياب الهلالي والجازية والأغاني الشعبية في مواسم الحصاد والأفراح، كانت كما يرى ركيبي تمثل ثقافة هذا الشعب التي تقاوم البدائل الثقافية التي كان يفرضها الاستعمار الفرنسي خاصة على الذين تعلموا في مدارسه، والذين استقروا في الحواضر والمدن.

وأهم ما تشترك فيه الأمة العربية، وما يمثل قوميتها هي اللغة العربية، « ونحن كشعب عربي لنا لغتنا القومية التي تحدد ثقافتنا وتعطيه الصبغة الخاصة بها، هذه الصبغة التي تحافظ على أشياء جوهرية في ثقافتنا وفي شخصيتنا المتفردة، وإذن فعندما نقول ثقافتنا القومية لا نقصد سوى شيء واحد هو أن شخصية هذه الثقافة إنما هي شخصية عربية لأن لغتنا القومية التي تعبر عن جوهر هذه الثقافة وعن مضمونها إنما هي اللغة العربية»<sup>28</sup>، فالثقافة واحدة يحكمها المشترك اللغوي، وليس بمعنى اللغة بمفهومها المادي المجرد، وإنما بمفهومها العميق الذي يشكل ثقافة تشترك في فكرها وعاداتها وأعرافها، لتشكل المنظومة الثقافية المتكاملة.

#### ب- المثقف الثوري:

وفي الحديث عن الثقافة وعن المقاومة الثقافية لا يغفل ركيبي عن الحديث عن المثقف ودوره في إحياء الثقافة القومية، حيث نلاحظ أنه يحدد للمثقف الجزائري دوره في توضيح ملامح الثقافة المعبرة عن شخصية الشعب، ببذل المزيد من الجهد في إحياء الثقافة المحلية والقومية ونفض الغبار والرماد المتراكم عليها بالبحث والدراسة المعمقة في التراث والثقافة، « وهذه الخطوة كانت دائماً هي اللبنة الأولى التي بنيت عليها ثقافات الشعوب والأمم عندما تحس بكيانها وتشعر بذاتيتها وتعثر على وجودها وتعرف موقعها»<sup>29</sup>، ولم تكن دعوة ركيبي هنا كدعوة المحافظين الذين يدعون إلى العودة إلى التراث

الإنسان موضوعياً مائة بالمائة، فالجانب الذاتي يظهر نتيجة لذلك لأن المثقف أو المفكر أو الأديب يكون همّه الأساسي وضع لبنات جديدة..ومن ثم فإنه لا يهتم بالحياد أو الموضوعية ولكن يهتم بالبناء الذاتي<sup>35</sup>، لكنه يؤكد على العودة إلى الموضوعية بعد تطور الوعي وتجاوز المرحلة التأسيسية، حيث يقول في هذا : « لكن مع مرور الزمن واتساع الآفاق وتكوّن الفهم والذوق والوعي تبدأ الموضوعية تترسخ فيما بعد<sup>36</sup>، أي أن ركيبي يرى بأن هذه الحالة طبيعية جداً، ولا تتصل به فقط، بل لا تتصل بالأدب والنقد الجزائري فحسب، ولكنها تظهر في كثير من الآداب العالمية والعربية.

وهذا فإننا نرى بأن المقاومة الثقافية تنطلق من البحث في الموروث الثقافي وإعادة بعثه من جديد، لمقاومة الثقافة الدخيلة (الاستعمارية) بالثقافة الأصيلة، وإعادة إحياء اللغة والدين للوقوف في وجه التهجير الفكري والثقافي المسلط على الشعب المقهور، وليست العودة إلى الماضي والثقافة الأصيلة من باب التقديس، وإنما من باب الانتماء والعودة إلى الجذور والأصول للانطلاق من جديد.

وليست العودة إلى التراث وحدها التي تخدم ثقافة المقاومة بل يجب أن تتوفر محاولات جادة لتجديد هذا التراث وتطوير الثقافة الاجتماعية تماشياً مع المتغيرات الجديدة، ومع أشكال السيطرة الجديدة، وهذا بإعادة النظر في ماضيها وحاضرنا ونقد الذات والمجتمع، وإعادة قراءة التراث الديني والفكري القديم قراءة صحيحة، والبحث عن الحقيقة المغيبة وإبطال الفكر الاستسلامي الانهزامي، يقول ركيبي: « وفي هذا الحديث أود أن أتعرض إلى الأدب باعتباره يمثل جانباً هاماً وحيوياً، أو بمعنى آخر يمثل فرعاً هاماً من فروع هذه الشجرة التي نطلق عليها الثقافة. ولا يمكن أن تكتمل ثقافة أي شعب إلا

مشروط للكشف عن هذا الموروث الثقافي والفكري، ومعرفة الظروف والملابسات التي أحاطت بمنتجه.

ت- الثقافة القومية:

ومن خلال هذه الدعوة، وهذا الرأي الذي طالما دافع عنه ركيبي فإننا نلاحظ بأنه شديد التحيز للثقافة القومية الاشتراكية، فهو هنا يقف في جبهة الاشتراكيين الذين يرفضون ذلك التنوع الثقافي لتلك التيارات الفكرية، التي لا يمكن إنكار وجودها في الساحة الثقافية الجزائرية قبل الثورة التحريرية أو أثنائها وبعدها، وعلى حسب رأيه فإن غياب المثقف

والثقافة في دفع حركة المجتمع إلى الأمام كان نتيجة الصراع القائم بين أقطاب الثقافة وتنافر أفكارهم، بدل توحيد الجهود من أجل ثقافة واحدة تصب في الفكر القومي الاشتراكي، ويرى بأن « نتيجة لكل هذا أن بقيت ثقافتنا حتى الآن تعيش في حلقة مفرغة، فلا نحن قمنا بإحياء التراث القومي ولا نحن أضفنا إليه شيئاً جديداً يساعدنا على خلق ثقافة قومية متطورة تساهم في بناء مجتمع جزائري اشتراكي ثوري وتعبّر عن مطالب الجماهير الشعبية<sup>34</sup>، ولعل هذا الدفاع عن القومية الاشتراكية كان مردّه إلى الفترة التي عايشها ركيبي وهي فترة الستينات والسبعينات، فلا غرابة في أن يحمل أفكار تلك المرحلة، ويعبر عن واقع المجتمع في تلك الفترة نتيجة لمعايشته كل هموم الشعب وواقعه وأفكاره وتطلعاته، لذا فإنه كان يصور فكر وثقافة المثقف الجزائري آنذاك.

وفي رده على سؤال\* حول الميل إلى الذاتية في كتاباته الأولى، وابتعاده عن الموضوعية في عدة مواقف يرد ركيبي قائلاً: « أعتقد أنه في المرحلة أو الفترة التي يكون فيها تأسيس قواعد أو تأصيل فكر أو استرداد ما يفقده الإنسان أو المجتمع أو الشعب أو الأمة في هذه اللحظات من الصعب أن يكون



6- غالي شكري: أدب المقاومة، دار المعارف، مصر، 1970، ص 06.

7- أماني الزعيبي: في المقاومة لدى أنطونيو نغري، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 161.

8- أماني الزعيبي: المرجع نفسه، ص 162.

9- عزت قرني: المرجع السابق، ص 93.

10- عزت قرني: المرجع نفسه، ص 93.

11- ينظر: علي عقلة عرسان: عناق المقاومة و الأدب، الأسبوع الأدبي، دمشق، سورية، ع: 19، 2000/07/29، ص 01.

12- تيري إيجلتون: فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2012، ص 15.

13- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، 2000، ص 77/76.

14- مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 77.

15- مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص 134.

16- فاطمة الحصي: ثقافة المقاومة عند محمد أركون، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 94.

17- الشريف طوطا: التأسيس الفلسفي لثقافة المقاومة عند حسن حنفي، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، ص 68.

18- أنيسة أحمد الحاج: المسار النقدي لدى عبد الله ركيبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 14.

19- محمد شوقي الزين: تكتيكات الهامش أمام استراتيجيات المركز-الثقافة والمقاومة عند ميشال دوسارتوتمثلات، نماذج، ممارسات، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 156.

20- مخلوف عامر: متابعات في الثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط 01، 2002.

21- سليم حيولة: أدب ما بعد الاستعمار، اللجنة كشكل من أشكال المقاومة الثقافية، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 406.

22- أم السعد حياة: أوجاع الذاكرة وسيناريوهات المقاومة في كتابات رضوى عاشور، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 228.

بوجود أدب مزدهر..أدب يعبر بصدق عن روح هذه الثقافة»<sup>37</sup>، فالأدب من وسائل الثقافة المهمة، والثقافة من مواضيع الأدب البارزة، والارتباط بينهما ارتباط هدف ووسيلة.

وبهذا يمكننا القول بان وسائل المقاومة متعددة ومتنوعة، والمقاومة الثقافية كما رأها ركيبي هي وسيلة مهمة للوقوف في وجه التشويه الاستعماري، والتغريب الفكري والثقافي الذي جعله الاستعمار أحد وسائله للقضاء على الثقافة الجزائرية الأصيلة، ومنه فإن عبد الله ركيبي يدعو إلى الثورة والمقاومة بالتمسك بالموروث الثقافي والعمل على إحيائه، بإحياء اللغة

والدين والعادات والتقاليد الأصيلة التي تمثل هذا المجتمع، ومهمة المثقف الثوري في هذا هي الثورة على كل أشكال التطبيع والاستسلام إلى ذلك الغزو الثقافي، لأن المثقف أكثر الناس وعياً بخطورة الوضع، وأكثر الناس قدرة على التعبير والإحياء، لذا فإن ركيبي كلفه بمهمة إحياء الثقافة الأصيلة ومقاومة الثقافة الدخيلة، وهذا ما وجده في دراساته للحركة الفكرية والأدبية والثقافية في الجزائر، حيث استطاع إبراز كثير من المجهودات والأعمال التي أسهمت في إعادة بعث الثقافة المحلية، والتمسك بها من خلال ما قدمه كثير من المثقفين والمبدعين في مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر.

اليوم:

- عزت قرني: أصوليات المقاومة الشاملة وإطار بناء الحضارة الجديدة، مجلة ثقافة المقاومة، جامعة فيلادلفيا، عمان، الأردن، ع: 2006، 10، ص 92.

2- عزت قرني: المرجع نفسه، ص 92.

3- عزت قرني: المرجع نفسه، ص 94.

4- عبد الرضا علي: الأسطورة في شعر السياب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، 1978، ص 167.

5- ألبير كامو: أسطورة سيزيف، تر: أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983، ص 138.

- 23- مخلوف عامر: المرجع السابق، ص 206.
- 24- عبد الله ركيبي: الهوية بين الثقافة والديمقراطية) دراسات أدبية ومقالات)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة الجزائر، 2009، ص 14.
- 25- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2009، ص 104.
- 26- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 109.
- 27- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 110.
- 28- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 112.
- 29- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 119.
- 30- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 119.
- 31- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 120.
- 32- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 121.
- 33- عبد الله ركيبي: الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 06- 10.
- 34- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 123.
- \* سؤال طرحه (بوعلام العوفي) على عبد الله ركيبي في حوار لصالح جريدة الشعب الجزائرية، نشر الحوار بتاريخ 1994/05/10، وأعاد ركيبي نشره في كتابه حوارات صريحة.
- 35- عبد الله ركيبي: حوارات صريحة، أحاديث مع صاحبة الجلالة تمتد إلى أكثر من 30 سنة داخل الوطن وخارجه، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2000، ص 242.
- 36- عبد الله ركيبي: حوارات صريحة، ص 242.
- 37- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، ص 127
- قائمة المراجع:**
- 01- ألبير كامو: أسطورة سيزيف، تر: أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983، ص 138.
- 02- أم السعد حياة: أوجاع الذاكرة وسيناريوهات المقاومة في كتابات رضوى عاشور، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 228.
- 03- أماني الزعيبي: في المقاومة لدى أنطونيو غري، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 161.
- 04- أنيسة أحمد الحاج: المسار النقدي لدى عبد الله ركيبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 14.
- 05- تيري إيجلتون: فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2012، ص 15.
- 06- سليم حيولة: أدب ما بعد الاستعمار، اللجنة كشكل من أشكال المقاومة الثقافية، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 406.
- 07- الشريف طوطاو: التأسيس الفلسفي لثقافة المقاومة عند حسن حنفي، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، ص 68.
- 08- عبد الرضا علي: الأسطورة في شعر السياب، منشورات وزارة الثقافة و الفنون، العراق، 1978، ص 167.
- 09- عبد الله ركيبي: الهوية بين الثقافة والديمقراطية) دراسات أدبية ومقالات)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة الجزائر، 2009، ص 14.
- 10- عبد الله ركيبي: أحاديث في الأدب والثقافة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2009، ص 104.
- 11- عبد الله ركيبي: الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 06- 10.
- 12- عبد الله ركيبي: حوارات صريحة، أحاديث مع صاحبة الجلالة تمتد إلى أكثر من 30 سنة داخل الوطن وخارجه، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2000، ص 242.
- 13- عزت قرني: أصوليات المقاومة الشاملة وإطار بناء الحضارة الجديدة، مجلة ثقافة المقاومة، جامعة فيلادلفيا، عمان، الأردن، ع: 2006، 10، ص 92.
- 14- علي عقلة عرسان: عناق المقاومة و الأدب، الأسبوع الأدبي، دمشق، سورية، ع 29، 19/07/2000، ص 01.
- 15- غالي شكري: أدب المقاومة، دار المعارف، مصر، 1970، ص 06.
- 16- فاطمة الحصي: ثقافة المقاومة عند محمد أركون، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 94.
- 17- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، 2000، ص 77/76.
- 18- محمد شوقي الزين: تكتيكات الهامش أمام استراتيجيات المركز-الثقافة والمقاومة عند ميشال دوسارتوتمثلات، نماذج، ممارسات، ثقافة المقاومة، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، 2016، ص 156.